مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّالِثَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

أُمُورٌ تُحَدِّدُ عَلَاقَةَ التَّالِي (الْقَارِئُ) بِالْقُرْآنِ

فَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُحَدِّدُ عَلَاقَةَ التَّالِي بِالْقُرْآنِ: بُعْدُ الْمُعَايَشَةِ، وَبُعْدُ اللُّغَةِ.

- **فَأَمَّا بُعْدُ الْمُعَايَشَةِ**: فَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعِيشُ مَعَ الْقُرْآنِ لَا يَحْتَاجُ إِلَّا إِلَىٰ إِيضَاحَاتٍ قَلِيلَةٍ، وَتَفْسِيرِ أَلْفَاظٍ مَعْدُودَةٍ، وَيُدْرِكُ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ بِيُسْرٍ وَسُهُولَةٍ، وَهَذَا كَحَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَأَمَّا الْبَعِيدُ عَنِ الْقُرْآنِ الَّذِي لَا يُعَايِشُهُ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَوْضِيحٍ وَتَفْصِيلٍ، وَرُبَّمَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ الْوَاضِحَاتُ.

حَالُ الْأَوَّلِ: كَمَنْ يَسْعَىٰ فِي بَلْدَتِهِ؛ فَإِنَّهُ يَمْضِي فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ كُلِّ مَكَانٍ بِلَا نَظَرٍ إِلَىٰ الْإِرْشَادَاتِ وَدُونَ سُؤَالٍ، وَرُبَّمَا اكْتَفَىٰ بِتَلْمِيحَاتٍ سَرِيعَةٍ لِيَنَالَ مَطْلُوبَهُ بِيُسْرٍ وَسُهُولَةٍ.

وَحَالُ الثَّانِي: كَالْغَرِيبِ الَّذِي لَا تَكْفِيهِ الْإِرْشَادَاتُ الْمَكْتُوبَةُ، وَرُبَّمَا سَأَلَ كَثِيرًا وَضَلَّ كَثِيرًا وَاحْتَارَ كَثِيرًا، وَغَابَتْ عَنْهُ حَاجَتُهُ وَهُوَ مِنْهَا قَرِيبٌ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]: «مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ حَيَّ الْقَلْبِ وَاعِيَهُ، تَامَّ الْفِطْرَةِ، فَإِذَا فَكَّرَ بِقَلْبِهِ وَجَالَ بِفِكْرِهِ دَلَّهُ عَقْلُهُ وَقَلْبُهُ عَلَىٰ صِحَّةِ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ

حَقٌّ، وَشَهِدَ قَلْبُهُ بِمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ بِهِ، فَكَانَ وُرُودُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ قَلْبِهِ نُورًا عَلَىٰ نُورٍ -يَعْنِي: نُورَ الْوَحْيِ عَلَىٰ نُورِ الْفِطْرَةِ-.

وَهَذَا وَصْفُ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ [النُّور: ٣٥]، فَهَذَا نُورُ الْفِطْرَةِ عَلَىٰ نُورِ الْوَحْيِ، وَهَذَا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْحَيِّ الْوَاعِي، يَجْمَعُ بَيْنَ قَلْبِهِ وَمَعَانِي الْقُرْآنِ فَيَجِدُهَا كَأَنَّهَا قَدْ كُتِبَتْ فِيهِ فَهُوَ يَقْرَؤُهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَكُونُ تَامَّ الِاسْتِعْدَادِ واعِيَ الْقَلْبِ كَامِلَ الْحَيَاةِ، فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ شَاهِدٍ يُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَمْ تَبْلُغْ حَيَاةُ قَلْبِهِ وَنُورُهُ وَزَكَاءُ فِطْرَتِهِ مَبْلَغَ الْقَلْبِ الْحَيِّ الْوَاعِي، فَطَرِيقُ وُصُولِ هِدَايَتِهِ أَنْ يُفَرِّغَ سَمْعَهُ لِلْكَلَامِ وَقَلْبَهُ لِتَأَمُّلِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَتَعَقُّلِ مَعَانِيهِ، فَيَعْلَمُ -حِينَئِذٍ- أَنَّهُ الْحَقُّ».

- **وَأَمَّا بُعْدُ اللُّغَةِ**: فَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ وَأَسَالِيبَ الْقُرْآنِ، وَيَتَعَامَلُ بِهَا كَثِيرًا فِي كَلَامِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ عَنَاءً فِي مَعْرِفَةِ دَلَائِلِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَإِدْرَاكِ الْمُرَادِ مِنَ الْآيَاتِ، وَتَصَوُّرِ الْمَعْنَىٰ الْمَقْصُودِ فِي الْآيَةِ.

وَأَمَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ جَيِّدًا، وَنَصِيبٌ كَبِيرٌ مِمَّا يَعْرِفُهُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ لَا يَسْتَخْدِمُهُ فِي كَلَامِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ الْقُرْآنَ بِلَا تَفْسِيرٍ، وَكَمْ تَمُرُّ عَلَيْهِ أَلْفَاظٌ غَرِيبَةٌ عَلَىٰ سَمْعِهِ أَوْ جُمَلٌ تَحْتَاجُ فِي نَظَرِهِ إِلَىٰ تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَكَلُّفٍ

لِتَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ، أَوْ تَمُرُّ عَلَيْهِ مَعَانٍ مُتَوَالِيَةٌ إِنْ سَعَىٰ بِجَهْدِهِ إِلَىٰ تَصَوُّرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ بَيْنَها عَلَاقَةً حَاضِرَةً فِي ذِهْنِهِ، فَلَا يَمْلِكُ أَنْ يَصِفَ تِلْكَ الْمَعَانِيَ الْعَظِيمَةَ إِلَّا بِالدُّرَرِ الْمُتَنَاثِرَةِ.

حَالُ الْأَوَّلِ: حَالُ مَنْ يَسْمَعُ الْمَثَلَ السَّائِرَ «الْعِلْمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ»، فَيُدْرِكُ الْمَعْنَىٰ الْمَقْصُودَ، وَلَا يَخْطُرُ عَلَىٰ بَالِهِ الْبَحْثُ عَنْ مَعَانِي الْمُفْرَدَاتِ، أَوْ تَعْرِيفُ الْعِلْمِ، أَوِ الْمَقْصُودُ بِالْمَثَلِ.

وَأَمَّا حَالُ الثَّانِي: فَإِنَّهُ لِبُعْدِهِ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ يَسْأَلُ عَنْ مَعْنَىٰ الْعِلْمِ؟ وَأَيُّ عِلْمٍ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ الْعِلْمُ فِي الصِّغَرِ؟ وَعَنْ حَدِّ الصِّغَرِ؟ وَمَا مَعْنَىٰ النَّقْشِ؟ وَلِمَاذَا ذَكَرَ الْحَجَرَ؟ وَيَجْتَهِدُ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ بَقَاءَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي تَعَلَّمَهُ الْإِنْسَانُ فِي صِغَرِهِ يَبْقَىٰ كَبَقَاءِ النَّقْشِ؛ وَهُوَ الْحَفْرُ الْجَمِيلُ فِي الْحَجَرِ الصُّلْبِ... وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَبُعْدُهُ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ أَجْهَدَهُ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْمَقْصُودِ، وَأَطَالَ فِي تَفْسِيرِ الْأَلْفَاظِ، وَفِي تَكَلُّفِ تَقْدِيرِ مَا يَظُنُّهُ مَحْذُوفًا، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنَ الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ كَمَا حَصَلَ لِلْأَوَّلِ.

www.menhag-un.com

التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ

إِنَّ جُزْءًا كَبِيرًا فِي مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَتَرَاكِيبِهِ مِمَّا يُعْرَفُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَعَلُّمَ الْعَرَبِيَّةِ وَتَعْلِيمَهَا فَرْضٌ عَلَىٰ الْكِفَايَةِ، وَكَانَ السَّلَفُ يُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَىٰ اللَّحْنِ، فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ أَنْ نَحْفَظَ الْقَانُونَ الْعَرَبِيَّ، وَنُصْلِحَ الْأَلْسُنَ الْمَائِلَةَ عَنْهُ، فَيَحْفَظَ لَنَا طَرِيقَةَ فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: «إِعْرَابُ الْقُرْآنِ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ تَقُومُ مَعَانِيهِ الَّتِي هِيَ الشَّرْعُ».

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَعَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يتعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ مَا بَلَغَهُ جَهْدُهُ، حَتَّىٰ يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيَتْلُوَ بِهِ الْقُرْآنَ، وَمَا ازْدَادَ مِنَ الْعِلْمِ بِاللِّسَانِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِسَانَ مَنْ خَتَمَ بِهِ نُبُوَّتَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ آخِرَ كُتُبِهِ كَانَ خَيْرًا لَهُ».

لِذَلِكَ كَانَتْ مَعْرِفَةُ الْعَرَبِيَّةِ شَرْطًا لِمَنْ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ غَيْرِ عَالِمٍ بِلُغَةِ الْعَرَبِ يُفَسِّرُ كِتَابَ اللهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا».

وَعَنِ الْغَايَةِ مِنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْعَرَبِيَّةُ إِنَّمَا احْتَاجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهَا لِأَجْلِ خِطَابِ الرَّسُولِ بِهَا، فَإِذَا أَعْرَضَ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ كَانَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ حَطَبِ جَهَنَّمَ».

لِهَذَا عُلِمَ أَنَّ تَعَلُّمَ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَّ سَبْرَ فُنُونِهَا وَضَبْطَ أُصُولِهَا؛ إِنَّمَا هُوَ لِمَعْرِفَةِ الْمَقْصُودِ مِنْ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَا سُمِّيَتْ مَعَ غَيْرِهَا عُلُومَ الْآلَةِ إِلَّا لِهَذَا الْأَمْرِ، وَمَنْ فَاتَهُ تَحْقِيقُ هَذَا الْمَقْصِدِ مَعَ جُهْدٍ وَتَعَبٍ وَتَعَمُّقٍ وَتَوَسُّعٍ؛ فَقَدْ أَمْضَىٰ عُمُرَهُ فِي غَيْرِ مَا طَائِلٍ، وَغَايَةُ مَا عِنْدَهُ أَنَّهُ يُجِيدُ تَعْلِيمَهَا لِغَيْرِهِ.

إِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ بُعْدِ الْمُعَايَشَةِ لِكَلَامِ اللهِ ﷻ وَبُعْدِ اللُّغَةِ أَدْرَكْنَا سِرَّ فَهْمِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِلْقُرْآنِ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ تَفْسِيرٍ إِلَّا فِي النَّزْرِ الْيَسِيرِ، وَسَنُدْرِكُ -أَيْضًا- عَظِيمَ حَاجَتِنَا إِلَىٰ تَفْسِيرٍ مُفَصَّلٍ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- وَصَفَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النَّحل: ١٠٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [العَنْكَبُوت: ٤٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٣]، وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَحْكَامَهُ وَيُسْرَهُ، وَأَنَّهُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهَكَذَا تَزِيدُ حَاجَةُ النَّاسِ لِلتَّفْسِيرِ كُلَّمَا بَعُدُوا عَنْ مُعَايَشَةِ هَدْيِهِ أَوْ هَجَرُوا لُغَتَهُ.

وَبِنَاءً عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ فَإِنَّهُ يُقَالُ: حِينَمَا يَجِدُ الْقَارِئُ فِي الْقُرْآنِ وَصْفًا أَوْ مَعْنًىٰ لَا يُدْرِكُهُ؛ فَلَا يَظُنُّ أَنَّهُ سَيَجِدُ فِي التَّفْسِيرِ لَفْظًا أَجْزَلَ أَوْ أَدَقَّ أَوْ أَجْمَلَ أَوْ أَوْضَحَ أَوْمَا يُدَانِي، بَلْ غَايَةُ مَا يَذْكُرُ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ تَوْضِيحٌ وَتَقْرِيبٌ لِلْمَعْنَىٰ لِمَنْ بَعُدَ عَنِ الْقُرْآنِ مُعَايَشَةً أَوْ لُغَةً، بِاسْتِثْنَاءِ مَا يَكُونُ مِنْ بَابِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ، أَوْ بِالسُّنَّةِ الثَّابِتَةِ أَوْ مَا فِي حُكْمِهَا.

مِنَ الْأَمْثِلَةِ الصَّرِيحَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حِينَ نَقَلَ تَفْسِيرَ مُجَاهِدٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٤]، قَالَ مُجَاهِدٌ: «يُقَالُ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مِنَ الْعَرَبِ. فَيُقَالُ: مِنْ أَيِّ الْعَرَبِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ قُرَيْشٍ». قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ مِنْ هَذَا بَيِّنٌ فِي الْآيَةِ، مُسْتَغْنًىٰ فِيهِ بِالتَّنْزِيلِ عَنِ التَّفْسِيرِ».

لَوْ عَلِمَ الْقَارِئُ عَيْنَ حَقِيقَةِ الْمَعْنَىٰ، أَوْ شَاهَدَ الْمَوْصُوفَ؛ لَمَا ابْتَغَىٰ لِلَفْظِ الْقُرْآنِ زِيَادَةً، وَلَا عَنْ أُسْلُوبِهِ صِيَاغَةً، وَلَا عَلَىٰ تَرْكِيبِهِ اسْتِدْرَاكًا، وَلَا تَقْدِيرًا لِمَحْذُوفٍ، وَلَمْ يَعْدِلْ عَنِ الْقُرْآنِ بَدَلًا.

لِذَلِكَ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يُفَسَّرُ بِهَا أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ: «أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةٌ لَا مُتَرَادِفَةٌ، فَإِنَّ التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فَإِمَّا نَادِرٌ أَوْ مَعْدُومٌ، وَقَلَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ، بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِمَعْنَاهُ.

www.menhag-un.com

وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطُّور: ٩]، إِنَّ الْمَوْرَ: هُوَ الْحَرَكَةُ، كَانَ تَقْرِيبًا؛ إِذِ الْمَوْرُ حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ، فَهَذَا كُلُّهُ تَقْرِيبٌ لَا تَحْقِيقٌ.

وَالْعَرَبُ تُضَمِّنَ الْفِعْلَ وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَةً، وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوفِ تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ، كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص: ٢٤] أَنَّ مَعْنَىٰ «إِلَىٰ»: مَعَ. وَالتَّحْقِيقُ مَا قَالَهُ النُّحَاةُ الْبَصْرِيُّونَ مِنَ التَّضْمِينِ، فَسُؤَالِ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إِلَىٰ نِعَاجِهِ.

وَمَنْ قَالَ مَعْنَىٰ ﴿لَا رَيْبَ﴾: لَا شَكَّ، فَهَذَا تَقْرِيبٌ، وَإِلَّا فَالرَّيْبُ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَحَرَكَةٌ، وَلَفْظُ الشَّكِّ وَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ هَذَا الْمَعْنَىٰ لَكِنَّ لَفْظَهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَجَمْعُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا نَافِعٌ جِدًّا؛ فَإِنَّ مَجْمُوعَ عِبَارَاتِهِمْ أَدَلُّ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنْ عِبَارَةٍ أَوْ عِبَارَتَيْنِ».

فَمُعَايَشَةُ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَعَ مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَا الْوَحْيَ الْخَاتِمَ؛ هُوَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَىٰ مَعْرِفَةِ وَسَبْرِ مَعَانِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ عِنْدَ التَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّعَقُّلِ فِي آيَاتِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هِدَايَةً وَنُورًا.

وَالنُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ مُتَكَامِلَةٌ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَلَيْسَ فِي أَيِّ مَوْضُوعٍ قُرْآنِيٍّ فَجْوَاتٌ مُهْمَلَةٌ، وَمِنْ شَأْنِ الْبَحْثِ وَالتَّدَبُّرِ الْمُتَعَمِّقِ أَنْ يَمْلَأَ كُلَّ فَجْوَةٍ مِنْ صَرِيحِ نَصٍّ، أَوْ مِنْ فَحْوَاهُ، أَوْ إِشَارَتِهِ، أَوْ مِنْ مَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ تُوجَدُ دَلَالَةٌ عَلَيْهِ.

فَعَلَىٰ مُتَدَبِّرِ كِتَابِ اللهِ ﷻ أَنْ يَتَتَبَّعَ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ كُلَّ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ، وَأَنْ يَتَدَبَّرَهَا مُلَاحِظًا تَكَامُلَ دَلَالَاتِهَا، وَمُسْتَبْعِدًا مَا أَمْكَنَ تَصَوُّرَاتِ التَّكْرَارِ، فَالْأَصْلُ التَّأْسِيسُ لَا التَّأْكِيدُ.

قَدْ يَسْهُلُ عَلَىٰ النَّاظِرِ فِي كِتَابِ اللهِ دُونَ تَدَبُّرٍ عَمِيقٍ إِذَا رَأَىٰ آيَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ تَتَحَدَّثُ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ؛ أَنْ يَتَصَوَّرَ بِيُسْرٍ أَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ مُكَرَّرَةً لِغَرَضِ التَّأْكِيدِ، وَأَنَّهُ لَا تُوجَدُ فُرُوقٌ بَيْنَهَا تَجْعَلُهَا مُتَكَامِلَةً فِي دَلَالَاتِهَا لَا مُكَرَّرَةً.

وَبَادِيَ الرَّأْيِ هَذِهِ سَطْحِيَّةٌ لَا تَلِيقُ بِمُتَدَبِّرٍ حَصِيفٍ يَتَدَبَّرُ كِتَابَ اللهِ بِعُمْقٍ وَرَوِيَّةٍ وَبَحْثٍ مُسْتَقْصٍ لِأَطْرَافِ الْمَوْضُوعِ.

كَثِيرٌ مِنَ النُّصُوصِ نَظُنُّهَا مُكَرَّرَةً، وَنَفْهَمُ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ تَكْرَارِهَا التَّأْكِيدُ، وَتَحْقِيقُ أَهْدَافٍ تَرْبَوِيَّةٍ، وَلَكِنَّ الْبَحْثَ الْعَمِيقَ أَثْبَتَ أَنَّهَا مُتَكَامِلَةٌ مَعَ تَحْقِيقِ غَرَضِ التَّأْكِيدِ وَالْأَهْدَافِ التَّرْبَوِيَّةِ.

وَمِنَ التَّتَبُّعِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ فِي اسْتِقْرَاءٍ نَاقِصٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ بَعْضِ الْبَاحِثِينَ تَأَكَّدَ أَنَّ النُّصُوصَ الْقُرْآنِيَّةَ مُتَكَامِلَةٌ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَأَنَّ كُلَّ نَصٍّ مِنَ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَا يَمْلَأُ فَرَاغَ حَبَّةٍ فِي عِقْدِ الْمَوْضُوعِ، وَيَمْتَازُ بِبَيَانِ فِكْرَةٍ إِذَا انْضَمَّتْ مَعَ سَائِرِ الْأَفْكَارِ الَّتِي أَبَانَتْهَا سَائِرُ النُّصُوصِ؛ تَكَامَلَ بَيَانُ الْمَوْضُوعِ بِكُلِّ عَنَاصِرِهِ وَمِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ، وَيَتَأَكَّدُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي أَيِّ مَوْضُوعٍ قُرْآنِيٍّ فَجْوَاتٌ مُهْمَلَةٌ، وَلَكِنْ قَدْ لَا

يَهْتَدِي الْمُتَدَبِّرُ إِلَىٰ مَلْءِ الْفَجْوَةِ الَّتِي يُلَاحِظُهَا بِدَلَالَةِ نَصٍّ مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُوَزَّعَةِ فِي السُّوَرِ؛ إِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَى النَّصِّ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَىٰ دَلَالَتِهِ الظَّاهِرَةِ أَوِ الْخَفِيَّةِ.

فَالْعَيْبُ مِنْ نَقْصِ التَّدَبُّرِ أَوْ مِنْ قُصُورِهِ، أَمَّا كِتَابُ اللهِ فَلَا نَقْصَ فِيهِ، وَلَا تَفْرِيطَ فِيهِ بِشَيْءٍ مِمَّا هُوَ مَقْصُودُ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلنَّاسِ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، إِذَا حَمَلْنَا لَفْظَ الْكِتَابِ فِي الْآيَةِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ، وَكَمَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا فِي سُورَةِ الرُّومِ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، وَالْمَثَلُ فِي مَوْضُوعٍ مَا أَوْ جُزْئِيَّةٍ مِنَ الْجُزْئِيَّاتِ قَدْ يُغْنِي عَنْ ذِكْرِ سَائِرِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ.

لَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ كُلَّ التَّفْصِيلَاتِ الْجُزْئِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ قَدْ جَاءَتْ بِوَجْهٍ أَوْ بِآخَرَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّ أُصُولَ الْمَعَانِي لِلْمَوْضُوعَاتِ الدِّينِيَّةِ قَدْ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ بِوَجْهٍ أَوْ بِآخَرَ، فَالْقُرْآنُ فِيهِ اسْتِيعَابٌ لِأَفْكَارِ كُلِّ مَوْضُوعٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي اهْتَمَّ بِبَيَانِهَا مِنَ الْكُلِّيَّاتِ الدِّينِيَّةِ.

أَمَّا التَّكَالِيفُ الْعَمَلِيَّةُ وَالتَّطْبِيقَاتُ الْفِعْلِيَّةُ؛ فَقَدْ أَحَالَ الْقُرْآنُ تَفْصِيلَاتِهَا عَلَىٰ الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ الْقَوْلِيِّ وَالْعَمَلِيِّ، وَالِاسْتِيعَابُ لِأَفْكَارِ كُلِّ مَوْضُوعٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي اسْتَوْفَتْ مَقْصُودَ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلنَّاسِ قَدْ يَكُونُ عَنْ طَرِيقِ ضَرْبِ الْمَثَلِ، وَقِيَاسِ سَائِرِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ عَلَيْهِ.

وَبِنَاءً عَلَىٰ هَذَا فَالْأَصْلُ تَكَامُلُ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْوَارِدَةِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، وَالتَّأْسِيسُ فِي كُلِّ نَصٍّ مِنْهَا مُقَدَّمٌ عَلَىٰ التَّأْكِيدِ؛ أَيْ: فَهْمُ النَّصِّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَحْمِلُ مَعْنًىٰ جَدِيدًا أَوْلَىٰ مِنْ فَهْمِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ يُؤَكِّدُ مَعْنًىٰ سَبَقَ، وَلا يُصَارُ إِلَىٰ حَمْلِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ التَّأْكِيدِ الْمَحْضِ إِلَّا عِنْدَ تَعَذُّرِ حَمْلِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَعْنًىٰ جَدِيدٍ مَقْبُولٍ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ فِي مَفَاهِيمِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَأْكِيدٍ لِأَصْلِ الْمَوْضُوعِ مُقْتَرِنٍ بِزِيَادَةِ الْفِكْرَةِ أَوِ الْمَعْنَىٰ الْجَدِيدِ.

الَّذِينَ لَا يَفْهَمُونَ مَبْدَأَ تَكَامُلِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَلَا يَجْعَلُونَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ الرَّئِيسَةِ لِمَا يَتَدَبَّرُونَ مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ يَقَعُونَ فِي عِدَّةِ أَخْطَاءٍ؛ مِنْهَا:

- أَنَّهُمْ لَا يَتَنَبَّهُونَ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُضَافِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّصُّ الثَّانِي.

- وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ آياتِ اللهِ فِي كِتَابِهِ فَيَفْهَمُونَهَا أَشْتَاتًا، وَلَا يَتَدَبَّرُونَهَا عَلَىٰ أَسَاسِ أَنَّهَا وَحْدَةٌ مُجْتَمِعَةٌ، وَأَنَّ كُلًّا مِنْهَا يَمْلَأُ فَرَاغًا مِنَ الْمَوْضُوعِ الْعَامِّ لَا يُزَاحِمُ فِيهِ غَيْرَهُ.

- وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ قَدْ يُطَبِّقُونَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَجْعَلُونَهَا مُكَرَّرَاتٍ، وَيُلْغُونَ بِذَلِكَ الدَّلَالَاتِ الْخَاصَّةَ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا كُلُّ نَصٍّ، وَالَّذِي يُوقِعُهُمْ فِي هَذَا الْوَهْمِ أَنَّ إِضَافَةَ الْمَعْنَىٰ الْجَدِيدِ فِي النَّصِّ الثَّانِي أَوِ الثَّالِثِ قَدِ اسْتَدْعَتْ إِعَادَةَ أَصْلِ الْمَوْضُوعِ.

فَهُمْ يَغْفُلُونَ عَنِ الْمَعْنَىٰ الْمُضَافِ، فَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّ النَّصَّ كُلَّهُ تَكْرِيرٌ لِمَا سَبَقَهُ لِغَرَضِ التَّأْكِيدِ لَا لِلتَّأْسِيسِ، وَقَدْ يُعَلِّلُونَ ذَلِكَ بِأَغْرَاضٍ تَرْبَوِيَّةٍ، عَلَىٰ أَنَّ التَّأْكِيدَ

وَالْأَهْدَافَ التَّرْبَوِيَّةَ أُمُورٌ بَاقِيَةٌ لَا تُلْغَىٰ مَعَ فَهْمِ الْفِكْرَةِ الْمُضَافَةِ فِي النَّصِّ الْجَدِيدِ، وَهَكَذَا يَفْعَلُ الْمُعَلِّمُ الْبَارِعُ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يُضِيفَ فِكْرَةً لِدَرْسٍ سَابِقٍ.

فَالْفَهْمُ السَّدِيدُ وَالتَّدَبُّرُ الصَّحِيحُ لِلنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ يُوجِبَانِ عَلَىٰ الْمُتَدَبِّرِ لِكَلَامِ اللهِ ﷻ أَنْ يَجْمَعَ كُلَّ النُّصُوصِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، وَأَنْ يَتَدَبَّرَهَا مُجْتَمِعَةً، مَالِئَةً أَمْكِنَتَهَا مِنَ الْمَوْضُوعِ؛ حَتَّىٰ لَا يَطْغَىٰ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَحَتَّىٰ لَا يَتَجَاوَزَ حُدُودَ مَكَانَةِ الْخَاصِّ، فَحِينَئِذٍ يُزَحْزِحُهُ عَنْ مَكَانِهِ لِيَأْخُذَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ.

خُذْ مَثَلًا قَوْلَ اللهِ ﷻ فِي الْمَائِدَةِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥].

إِنَّ هَذَا النَّصَّ لَا بُدَّ أَنْ يُفْهَمَ مُجْتَمِعًا مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النُّصُوصِ الْآمِرَةِ بِالْجِهَادِ، وَالَّتِي تُحَمِّلُ الْمُؤْمِنِينَ مَسْؤُولِيَّةَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْأَخْذِ عَلَىٰ أَيْدِي الظَّالِمِينَ، وَوِقَايَةِ الْأَهْلِ مِنَ النَّارِ، وَالْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَإِقَامَةِ حُكْمِ اللهِ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ الِاسْتِطَاعَةِ.

وَطَرِيقَةُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ لَا تَعْنِي تَطْبِيقَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْوَارِدَةِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ أَوْ مُتَقَارِبٍ -لَا تَعْنِي تَطْبِيقَهَا- بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَاعْتِبَارَهَا دَالَّةً عَلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ، بَلْ مِنْ أَهَمِّ مَا تَجِبُ مُلَاحَظَتُهُ لَدَىٰ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ: تَوْزِيعُ دَلَالَاتِ الْآيَاتِ عَلَىٰ الْمَعَانِي الَّتِي تَمْلَأُ فَرَاغَاتٍ فِي سَاحَةِ الْمَوْضُوعِ، أَوْ فِي خَرِيطَةِ الْمَوْضُوعِ، فَهَذَا أَوْلَىٰ مِنْ تَجْمِيعِهَا وَتَطْبِيقِهَا جَمِيعًا عَلَىٰ فِكْرَةٍ

وَاحِدَةٍ، بَلْ هُوَ الَّذِي يُوجِبُهُ التَّدَبُّرُ الصَّحِيحُ لِكِتَابِ اللهِ -تَعَالَىٰ- الْمَجِيدِ، كَمَا مَرَّ فِي هَذَا النَّصِّ الْإِلَهِيِّ الْكَرِيمِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥].

لَيْسَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يُنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَلْ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُصَحِّحًا لِلْمَفْهُومِ الَّذِي قَدْ يَسْتَقِرُّ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ مِمَّنْ يَحْسُو حَسْوَ الطَّائِرِ فِي فَهْمِ الْآيَاتِ وَفِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعَانِيهَا، وَهَذِهِ بَعْضُ الْأَمْثِلَةِ:

*** فِي مَوْضُوعٍ مِنْ مَوْضُوعَاتِ التَّقْوَىٰ لَدَيْنَا ثَلَاثَةُ نُصُوصٍ:**

الْأَوَّلُ: مَا جَاءَ آخِرَ آيَةِ الْمُدَايَنَةِ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

الثَّانِي: قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأَنْفَال: ٢٩].

الثَّالِثُ: قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحَدِيد: ٢٨].

هَذِهِ النُّصُوصُ الثَّلَاثَةُ يَرَىٰ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَخْذًا بِطَرِيقَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ تَطْبِيقَ الْمُرَادِ مِنْهَا عَلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ؛ هُوَ أَنَّ مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ فَتَحَ اللهُ لَهُ أَبْوَابَ

الْمَعْرِفَةِ، وَنَوَّرَ بَصِيرَتَهُ لِلجَوَلَانِ فِي آفَاقِ الْعِلْمِ. وَيَزِيدُ الْخُرَافِيُّونَ فِي هَذَا فَيَجْعَلُونَ الْمُرَادَ مِنْهَا الْوُصُولَ إِلَىٰ الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ الَّذِي لَا يَأْتِي عَنْ طَرِيقِ الِاكْتِسَابِ الْعِلْمِيِّ، وَإِنَّمَا يَأْتِي عَنْ طَرِيقِ الْإِلْهَامِ أَوْ مَا يُسَمُّونَهُ بِالْكَشْفِ، وَسَبَبُهُ التَّقْوَىٰ فَقَطْ!

وَتَتَسَاءَلُ هُنَا: كَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ مَنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَعْرِفَةُ طَرِيقِ التَّقْوَىٰ، فَقَدْ يَعْصِي اللهَ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يَتَّقِيهِ؟!

إِذَا طَرَقْنَا فِي هَذِهِ النُّصُوصِ الثَّلَاثَةِ طَرِيقَةَ التَّطْبِيقِ -يَعْنِي لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ عَلَىٰ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ- كَمَا يَفْعَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَدَبِّرِينَ، وَاسْتَهْدَيْنَا لِقَاعِدَةِ تَكَامُلِ النُّصُوصِ، وَرَجَعْنَا إِلَىٰ سِيَاقِ كُلِّ نَصٍّ مِنْهَا؛ ظَهَرَ لَنَا مَا يَلِي:

- مَا جَاءَ فِي آخِرِ الْمُدَايَنَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ أَحْكَامٍ رَائِعَةٍ، وَإِرْشَادَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَتَعْلِيمٍ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ- لِلَّذِينَ آمَنُوا، قَدْ جَاءَ مُنَاسِبًا تَمَامًا لِتِلْكَ الْأَحْكَامِ وَالْإِرْشَادَاتِ، وَمُنَاسِبًا لِهَذَا التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِيِّ الْمُنَزَّلِ فِي الْكِتَابِ.

إِنَّ الْأَحْكَامَ التَّكْلِيفِيَّةَ يُنَاسِبُهَا الْأَمْرُ بِالتَّقْوَىٰ؛ فَجَاءَ فِي آخِرِ الْآيَةِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وَالْأَحْكَامُ وَالْإِرْشَادَاتُ الْعَظِيمَةُ تَعْلِيمٌ رَبَّانِيٌّ مُنَزَّلٌ يُنَاسِبُهُ الِامْتِنَانُ بِالتَّعْلِيمِ؛ فَجَاءَ عَقِبَ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَىٰ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِتَمْجِيدِ اللهِ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؛ أَيْ: فَمَا يُعَلِّمُهُ عِبَادَهُ هُوَ الْحَقُّ وَهُوَ الْخَيْرُ لَهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ عَلَىٰ سَبِيلِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾، فَهَذَا اسْتِئْنَافٌ لِكَلَامٍ جَدِيدٍ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هَذَا أَمْرٌ بِالتَّقْوَىٰ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْأَحْكَامَ التَّكْلِيفِيَّةَ الَّتِي يُنَاسِبُهَا الْأَمْرُ بِالتَّقْوَىٰ فِي آيَةِ الْمُدَايَنَةِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾، لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكُمْ تِلْكَ الْأَحْكَامَ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَكُمْ بَعْدَ الْجَهَالَةِ وَبَصَّرَكُمْ بَعْدَ الْعَمَايَةِ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾، لَوْ كَانَ هَذَا مُرَتَّبًا عَلَىٰ هَذَا لَكَانَ السِّيَاقُ عَلَىٰ سَبِيلِ الْجَزْمِ: وَاتَّقُوا اللهَ يُعَلِّمْكُمُ اللهُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

لَا خِلَافَ عَلَىٰ أَنَّ تَقْوَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هِيَ السَّبِيلُ الْمَمْهُودَةُ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ تَعَلُّمِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ، وَأَنَّ الْفَيْضَ بِالْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ الْعَظِيمِ عَلَىٰ الْقَلْبِ النَّقِيِّ التَّقِيِّ يَكُونُ -بِفَضْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مَلْحُوظًا فِيهِ تَقْوَىٰ ذَلِكَ الْقَلْبِ، بِعَكْسِ مَا إِذَا كَانَ الْقَلْبُ مَمْلُوءًا بِالْآفَاتِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَحَلًّا قَابِلًا لِنُزُولِ فُيُوضَاتِ الرَّحَمَاتِ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ مَا دَلَّ سِيَاقُ الْآيَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

- مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، جَاءَ بَيَانًا لِبَعْضِ ثَوَابِ الْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْفُرْقَانُ؛ أَيِ: الْبَصِيرَةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْمُتَّقِيَ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ التَّوْفِيقِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي يَمْنَحُ اللهُ فِيهِ الْمُتَّقِينَ نُورًا خَاصًّا لِبَصَائِرِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ وَأَذْهَانِهِمْ.

- مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحَدِيد: ٢٨]، دَلَّ السِّيَاقُ عَلَىٰ أَنَّهُ ثَوَابٌ أُخْرَوِيٌّ يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهَذَا النُّورُ الَّذِي يَمْشُونَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ ثَوَابٌ أُخْرَوِيٌّ يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَالْخِطَابُ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَاللهُ يَقُولُ لَهُمْ: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ أَيْ: يُؤْتِكُمْ نَصِيبَيْنِ؛ عَلَىٰ إِيمَانِكُمُ الْأَوَّلِ، ثُمَّ عَلَىٰ إِيمَانِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِالْقُرْآنِ.

وَالسُّورَةُ قَدْ تَحَدَّثَتْ فِي سَوَابِقِهَا عَنِ النُّورِ الَّذِي يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ مَحْرُومُونَ مِنْ هَذَا النُّورِ، فَتَكَامَلَتِ الْمَعَانِي بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْمُسْتَهْدِيَةِ بِقَاعِدَةِ تَكَامُلِ النُّصُوصِ، أَمَّا التَّطْبِيقُ عَلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ فَقَدْ ضَيَّعَ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ.

*** مِثَالٌ ثَانٍ: فِي مَوْضُوعِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ؛ لَدَيْنَا نَصَّانِ:**

الْأَوَّلُ: وَهُوَ الْأَسْبَقُ نُزُولًا، نَزَلَ فِي مَكَّةَ؛ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ جَلَّوَعَلَا فِي سُورَةِ سُبْحَانَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإِسْرَاء: ٣١].

الثَّانِي: نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ؛ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأَنْعَام: ١٥١].

- لَوْ تَدَبَّرْنَا هَذَيْنِ النَّصَّيْنِ لَوَجَدْنَاهُمَا مُتَكَامِلَيْنِ لَا مُكَرَّرَيْنِ، فَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ أَعْلَنَ اللهُ ﷻ فِيهِ تَكَفُّلَهُ بِرِزْقِ الْأَوْلَادِ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ تَكَفُّلَهُ بِرِزْقِ أَوْلِيَائِهِمُ الْمُنْفِقِينَ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ فِي مَوْضُوعِ مُحَاوَلَةِ التَّخَلُّصِ مِنَ الْأَوْلَادِ بِقَتْلِهِمْ خَشْيَةَ حُدُوثِ الْفَقْرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِسَبَبِ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ.

فَاللهُ يَنْهَىٰ عَنْ قَتْلِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَيُبَيِّنُ لِلْأَوْلِيَاءِ أَنَّ رِزْقَهُمْ قَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ الْأَوْلَادِ أَوْ عَنْ طَرِيقِهِمْ إِذَا كَبِرُوا، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ تَقْدِيمُ التَّكَفُّلِ بِرِزْقِ الْأَوْلَادِ: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

وَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْفَقْرَ أَمْرٌ مَحْذُورٌ وُقُوعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْمَجْهُولِ وَلَيْسَ وَاقِعًا فِي الْحَالِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ- فِي الْآيَةِ: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾؛ أَيْ: خَشْيَةَ حُدُوثِ فَقْرٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

- مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ أَعْلَنَ اللهُ فِيهِ تَكَفُّلَهُ بِرِزْقِ الْأَوْلِيَاءِ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ تَكَفُّلَهُ بِرِزْقِ أَوْلَادِهِمْ، عَلَىٰ عَكْسِ مَا جَاءَ فِي النَّصِّ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ الْمَوْضُوعَ هُنَا هُوَ مُحَاوَلَةُ التَّخَلُّصِ مِنَ الْأَوْلَادِ بِقَتْلِهِمْ، تَخَلُّصًا مِنْ أَزْمَةِ الْفَقْرِ الْوَاقِعِ الْجَاثِمِ، دَلَّ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُ اللهِ فِي الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾، لَمْ يَقُلْ: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ وَهُوَ: تَوَقُّعُ حُدُوثِ الْفَقْرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَمَا فِي آيَةِ الْإِسْرَاءِ، وَأَمَّا هَاهُنَا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾؛ مِنْ فَقْرٍ وَاقِعٍ جَاثِمٍ ضَاغِطٍ ثَقِيلٍ، أَيْ مِنْ فَقْرٍ وَاقِعٍ فِعْلًا، فَكَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ هَاهُنَا تَقْدِيمُ التَّعَهُّدِ بِرِزْقِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَىٰ التَّعَهُّدِ بِرِزْقِ أَوْلَادِهِمْ.

فَتكَامَلَ النَّصَّانِ، وَتَمَّ الْمَوْضُوعُ مِنْ مُخْتَلِفِ جَوَانِبِهِ، وَحَصَلَ مَعَ ذَلِكَ تَأْكِيدُ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْمَوْضُوعِ بِمَا جَاءَ فِي النَّصِّ الْمُتَأَخِّرِ.

وَجَاءَ تَرْتِيبُ النُّزُولِ مُنْسَجِمًا مَعَ التَّرْتِيبِ الْمَنْطِقِيِّ، فَالنَّهْيُ الْأَوَّلُ تَضَمَّنَ النَّهْيَ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ خَشْيَةَ حُدُوثِ الْفَقْرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، لَكِنْ بَقِيَ بَعْدَهُ سُؤَالٌ، وَهُوَ: فَمَا حَالُ مَنْ يُعَانِي مِنْ أَزْمَةِ فَقْرٍ وَاقِعٍ جَاثِمٍ؟ أَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ أَوْلَادِهِ الَّذِينَ لَا يَجِدُ مَا يُنْفِقُهُ عَلَيْهِمْ؟

فَكَانَ جَوَابُ هَذَا السُّؤَالِ الَّذِي قَدْ يَدُورُ فِي الصُّدُورِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾.

فَبِتكَامُلِ النُّصُوصِ نَصِلُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّتِيجَةِ الْمُبْهِرَةِ.

* **الْمِثَالُ الثَّالِثُ**: فِي مَوْضُوعِ التَّقْلِيدِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْآبَاءُ بِتَعَصُّبٍ أَعْمَىٰ، مَعَ ذَمٍّ ذَلِكَ، وَالْإِقْنَاعِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ، جَاءَ عِنْدَنَا نَصَّانِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

الْأَوَّلُ: مَكِّيٌّ؛ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لُقْمَان: ٢٠-٢١].

النَّصُّ الثَّانِي: مَدَنِيٌّ؛ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٠].

لَوْ تَدَبَّرْنَا هَذَيْنِ النَّصَّيْنِ -أَيْضًا- لَوَجَدْنَاهُمَا مُتكَامِلَيْنِ لَا مُكَرَّرَيْنِ، وَبُرْهَانُ ذَلِكَ:

- أَنَّ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ وَكَانَ الْأَسْبَقَ نُزُولًا، تَضَمَّنَ إِقْنَاعَ الْمُقَلِّدِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ لِآبَائِهِمْ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ آبَاؤُهُمْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِخُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، الَّذِي يَدْعُوهُمْ عَنْ طَرِيقِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ، وَإِذَا كَانَ أَمْرُهُمْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ ذَوِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُمُ اتِّبَاعًا أَعْمَىٰ، لِأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مَعَهُمْ فِي عَذَابِ السَّعِيرِ.

- وَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ تَضَمَّنَ إِقْنَاعَ الْمُقَلِّدِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ لِآبَائِهِمْ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ آبَاؤُهُمْ قَدْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَىٰ سَبِيلِ نَجَاتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ، وَإِذَا كَانَ أَمْرُهُمْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ ذَوِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُمُ اتِّبَاعًا أَعْمَىٰ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا اتَّبَعُوهُمْ فَقَدِ اتَّبَعُوا جَاهِلِينَ ضَالِّينَ.

وَلَمَّا كَانَ التَّقْلِيدُ الْأَعْمَىٰ لِلْآبَاءِ بِدَافِعِ التَّعَصُّبِ عُرْضَةً لِأَمْرَيْنِ فَاسِدَيْنِ:

الْأَوَّلُ: كَوْنُ الْمَتْبُوعِ تَابِعًا لِأَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَمُتَأَثِّرًا بِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ.

الثَّانِي: كَوْنُ الْمَتْبُوعِ جَاهِلًا لَا بَصِيرَةَ لَهُ، وَمُعَانِدًا لَا يَتَقَبَّلُ هِدَايَةً.

لَمَّا كَانَ التَّقْلِيدُ الْأَعْمَىٰ لِلْآبَاءِ كَذَلِكَ؛ كَانَ مَنْهَجًا بَاطِلًا وعَمَلًا مَذْمُومًا لَا يَلِيقُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ أَنْ يَفْعَلُوهُ، وَبِهَذَا يَتِمُّ الْإِقْنَاعُ لِمَنْ أَرَادَ الْحَقَّ.

فَتَكَامَلَ النَّصَّانِ، وَتَمَّ الْمَوْضُوعُ مِنْ مُخْتَلِفِ جَوَانِبِهِ، وَحَصَلَ مَعَ ذَلِكَ تَأْكِيدُ ذَمِّ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَىٰ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْمَوْضُوعِ بِمَا جَاءَ فِي النَّصِّ الْمُتَأَخِّرِ الَّذِي أَفَادَ مَعْنًىٰ جَدِيدًا، لَا عَلَىٰ طَرِيقَةِ أَنَّ هَذَا يَكُونُ تَطْبِيقًا بِمَعْنَىٰ أَنَّ النَّصَّ الثَّانِيَ أَدَّىٰ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلَ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّكْرِيرِ، مِنْ أَجْلِ التَّرْكِيزِ عَلَىٰ التَّأْكِيدِ فِي قُلُوبِ السَّامِعِينَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَسْمَعُهُ كَثِيرًا.

فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ تَكَامُلِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالنُّصُوصِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

www.menhag-un.com

نَمَاذِجُ مِنْ تَدَبُّرِ السَّلَفِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَعِنْدَنَا نَمَاذِجُ مِنْ تَدَبُّرِ السَّلَفِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ كَالشَّوَاهِدِ التَّطْبِيقِيَّةِ تَكُونُ حَافِزًا لِلْهِمَّةِ فِي أَنْ تَحْذُوَ حَذْوَهُمْ، وَتَنْتَظِمَ فِي سِلْكِهِمْ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَاللهُ لَا يَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

لِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ نَمَاذِجُ كَثِيرَةٌ تَحْتَوِي عَلَىٰ تَدَارُسِهِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ، وَاسْتِخْرَاجِ حِكَمِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَعَانِيهِ، وَالْتِزَامِ أَوَامِرِهِ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ، وَلَعَلَّ مِمَّا يُفِيدُ فِي عَرْضِ الْأَمْثِلَةِ أَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ مَا يَدُلُّ بِمُنَاسَبَةٍ عَلَىٰ كُلِّ مِثَالٍ.

*** الِالْتِزَامُ بِالْأَمْرِ:**

وَذَلِكَ فِي الْتِزَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِلتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ بَعْدَ نُزُولِ سُورَةِ النَّصْرِ؛ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا صَلَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النَّصر: ١] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»؛ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَهَذَا نَمُوذَجٌ مِنْ نَمَاذِجِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ الْكَرِيمِ: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النَّصْر: ٣]، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي بِذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ وَعَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُرَادَهُ.

*** تَذَكُّرُ الْآيَةِ عِنْدَ مُقْتَضَاهَا:**

كَمَا جَاءَ فِي تَذَكُّرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ **ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ [التَّكَاثُر: ٨]، وَذَلِكَ فِيمَا يَرْوِيهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه حَيْثُ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما، فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**»، قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ!

الصِّدِّيقُ وَالْفَارُوقُ!! مَا أَخْرَجَهُمَا مِنْ بُيُوتِهِمَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي لَا يُخْرَجُ فِيهَا سِوَىٰ الْجُوعِ!!

قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا** ﷺ، **قُومَا**»، فَقَامَا مَعَهُ، فَأَتَىٰ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا!

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**»، قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا -أَيِ: الْمَاءَ-. إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي!

قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَ لَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذَا. ثُمَّ أَخَذَ الْمُدْيَةَ -أَيِ: السِّكِّينَ-، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ!**»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ، وَشَرِبُوا، فَلَمَّا شَبِعُوا وَرَوَوْا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّىٰ أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

فَتَذَكَّرَ الْآيَةَ ﷺ عِنْدَ مُقْتَضَاهَا.

*** كَذَلِكَ اتِّبَاعُ أَحْسَنِهِ:**

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالًا، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، فَلَمَّا نزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿**لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عِمْرَان: ٩٢]، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿**لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عِمْرَان: ٩٢]، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي بَيْرَحَاءُ، وَإِنَّهَا لَصَدَقَةٌ لله، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ شِئْتَ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَخٍ بَخٍ! ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا، وَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ**»، فَقَسَّمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَضَرَتْنِي هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عِمْرَان: ٩٢]، فذَكَرْتُ مَا أَعْطَانِي اللهُ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ مَرْجَانَةَ؛ وَهِيَ جَارِيَةٌ لِي رُومِيَّةٌ، فَقُلْتُ: هِيَ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ، فَلَوْ أَنِّي أَعُودُ فِي شَيْءٍ جَعَلْتُهُ للهِ لَأَنْكَحْتُهَا نَافِعًا.

وَلَمَّا نَزَلَتْ تِلْكَ الْآيَةُ قَالَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لِي مَالٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ فَرَسِي هَذِهِ. فَجَاءَ بِهَا إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ».

*** كَذَلِكَ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي:**

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ وَفَقْرِهِ-: وَاللهُ لَا أُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: ٢٢].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَىٰ وَاللهِ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَىٰ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

*** وَمُرَاعَاةُ مَوْضُوعِ السُّورَةِ:**

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ يَدْخُلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا

أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ. فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، قَالَ: فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النَّصْر: ١]؟

قَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرَنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرَنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا. وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي عُمَرُ: أَكَذَا يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟! فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ؛ قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النَّصْر: ١] وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النَّصْر: ٣].

فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

منهاج النبوة
www.menhag-un.com